الفصل الأول 1

التطور التاريخي والمفاهيم التقليدية للموهبة

❖ **مقدمة**

❖ **أسباب الاهتمام بالموهوبين والمتفوقين عالمياً.**

أولاً- تقدم حركة القياس العقلي.

- "فرانسيس جالتون "Francis Galton
- "ألفرد بينيه" Alfred Binet
- "لويس تيرمان" Lewis Terman

ثانياً- الحرب الباردة وسباق التسلح .

ثالثاً- الانفجار السكاني والثورة التقنية والمعرفية.

رابعاً- الجمعيات والمؤتمرات العلميّة.

خامساً- المجهودات الفردية.

❖ **مفاهيم تقليدية حول الموهبة والإبداع**

أولاً- الاضطراب العقلي والانفعالي.

ثانياً- تدني التحصيل المدرسي.

ثالثاً- أحادية الموهبة.

رابعاً- تلاشي الموهبة المبكرة.

مقدمـــــة

الفروق الفردية بين بني البشر في خصائصهم وقدراتهم حقيقة لا جدال فيها منذ وجد الإنسان على هذا الكوكب. ومن الطبيعي أن يظهر الناس اهتماماً خاصاً بالأفراد الذين تميزوا بقدراتهم أو مواهبهم بصورة استثنائية في أحد ميادين النشاط الإنساني التي يقدرها المجتمع. وفي حالات كثيرة كان ذلك الاهتمام وبالاً على أولئك الأفراد لخروجهم على كل ما هو مألوف أو معروف. ومع ذلك فقد ظلت الفروق الفردية مسألة تسترعي الانتباه والاهتمام منذ أقدم العصور حتى الآن سواءً أكان ذلك على المستوى الرسمي أم الشعبي.

لقد طور الصينيون منذ أكثر من خمسة آلاف سنة نظاماً متقناً لاختيار الموظفين الحكوميين من ذوي الكفاءة والاقتدار. وكان الأساس الذي اعتمدوه لهذا الغرض خضوع المتقدمين أو المرشحين لتلك الوظائف لاختبارات تنافسية تقرر نتائجها من الأجدر بشغل الوظائف الرسمية. وبعد ذلك بألفي سنة تقريباً أشار أفلاطون في جمهوريته الفاضلة إلى أهمية الفروق الفردية في القدرات العقلية والخصائص الشخصية بالنسبة لميادين العمل التي تناسب الأفراد في ميادين الحياة المختلفة. وصنف في نظريته الأفراد مستخدماً المعادن المختلفة لوصف الأفراد الذين ينتمون لكل صنف، فهذا مركب من معدن الذهب، وهذا مركب من معدن الفضة وذلك مركب من معدن النحاس أو الفولاذ. وكان يرى أن الفرد المركب من معدن الذهب يتمتع بنسبة عالية من الذكاء مقارنة بالرجل الفضي أو النحاسي. ورأى أن من ينتمي إلى الصنف الأول، –وهو الأرفع– يجب أن يتوجه لدراسة الفلسفة وعلوم ما وراء الطبيعة باعتبارها موضوعات تتجاوز قدرات الأفراد من الأصناف الأخرى الذين يصلحون لأعمال الجندية أو الأعمال الحرفية والزراعية (*Vernon, Adamson, &Vernon, 1977*) .

بالإضافة إلى ذلك فقد اشتملت نظرية أفلاطون هذه على معالجة لقضية الوراثة الفطرية والبيئة أو التنشئة الاجتماعية. وكان يرى أن الوراثة هي الأصل في تفسير الفروق بين الأفراد من حيث القدرات العقلية والسمات الشخصية. وتجاوز في نظريته الى ما هو أبعد من ذلك ليأخذ طابعاً سياسياً وتربوياً واجتماعياً. فالحكام من معدن الذهب، وأعوانهم ومساعدوهم من معدن الفضة، أما الحرفيون والفلاحون فهم مركبون من خليط من الحديد والنحاس. أما رعاية الأطفال من الصنف الأول فهي في مرتبة التكليف الإلهي للحكام. وحتى يتحقق ذلك فلا بد أن يقوموا بتشخيص كل طفل عند ولادته للتعرف على نوع معدنه، ثمّ بعد ذلك يختارون الأطفال من معدن الذهب بغض النظر عن معدن آبائهم من أجل إعدادهم ليكونوا حكاماً وحراساً لجمهوريته (*Branch, &Cash, 1966*).

❖ أسباب الاهتمام بالموهوبين والمبدعين

كثيرة هي الأسباب التي ساهمت بشكل أو بآخر في تزايد الاهتمام بتربية الموهوبين والمتفوقين وتعليمهم منذ بداية القرن العشرين. وسنحاول في الصفحات الآتية من هذا الفصل أن نعرض لخمسة أسباب رئيسة، وهي: تقدم حركة القياس العقلي، سباق التسلح بين العملاقين خلال الفترة ما بين الحرب العالمية الثانية و انهيار الاتحاد السوفيتي وحلف وارسو في بداية التسعينات، الانفجار المعرفي والسكاني، الجمعيات المهنية والمؤتمرات العلمية والمجهودات الفردية الطلائعية.

وفيما يأتي نقدم شرحاً مفصلاً لذلك:

أولاً- تقدم حركة القياس العقلي

من الطبيعي أن يتأثر تطور الاهتمام بالموهوبين المتفوقين بتطور حركة القياس العقلي، ذلك أن عملية الكشف عن الموهوب والمتفوق تتطلب من دون أدنى شك قياساً لقدراته بطريقة ما . وقد ظل القياس العقلي وما يزال محوراً أساسياً من محاور المشروعات التي تستهدف رعاية هذه الفئة من الأطفال واليافعين والراشدين. وربما كان من المفارقات أن مشكلة التخلف العقلي وضعف القدرة على التعلم هي التي أظهرت الحاجة إلى مقاييس القدرة العقلية، كما أن الحروب الكونية –ولا سيما الحرب العالمية الأولى– هي الوقود الذي حافظ على استمرار اهتمام الساسة والقادة بحركة القياس، وقدم دفعات متتالية للباحثين والعلماء في مجال التربية وعلم النفس من أجل الاستمرار في تطوير أدوات القياس المختلفة لاستخدامها في اختيار المرشحين لفروع القوات المسلحة المختلفة.

لقد ساعدت حركة القياس العقلي والنفسي على زيادة الاهتمام بتربية الموهوبين والمتفوقين وتعليمهم، ودفعت البرامج التربوية لرعايتهم خطوات كبيرة إلى الأمام لأنها تمثل المدخل الطبيعي للتعرف عليهم و كشفهم. وقد تطورت حركة القياس العقلي خلال الفترة ما بين (1875) و (1970) بفضل مجهودات كثير من العلماء والتربويون في أقطار مختلفة من العالم، ولكن ثلاثة منهم تركوا بصمات واضحة، ويعزى إليهم أكبر الأثر في تقدم هذه الحركة، وربما كانت الإشارة إليهم ضرورية ومناسبة لسياق الموضوع:

"فرانسيس جالتون" Francis Galton (1822-1911)

إن الفروق بين الأفراد حقيقية ووجدت منذ أن وجد أكثر من إنسان على هذا الكوكب. ومع أن هذه الفروق مسألة خضعت للملاحظة والتعليق منذ أقدم العصور، إلا أن "جالتون" يعد رائداً في محاولاته دراستها وقياسها بأسلوب علمي.

كان العالم الإنجليزي "جالتون" نفسه على درجة عالية جداً من الذكاء. فقد بدأ يقرأ وعمره سنتان ونصف، وبدأ يكتب وعمره أربع سنوات. وفي ضوء المعلومات التي أوردها "بيرسون" Pearson عن حياته وأعماله والمهمات التي كان باستطاعته القيام بها في مراحل عمرية مختلفة قدر "تيرمان" Terman نسبة ذكائه في طفولته بمائتين. وقد بدأ بدراسة الطب في سن السادسة عشرة، وبعد سنتين تحول لدراسة الرياضيات. سافر إلى السودان مرتين في عامي 1845 و 1846، كما سافر إلى جنوب إفريقيا في رحلات استكشافيّة كشف خلالها عن مناطق لأول مرة. وحاز على الميدالية الذهبية للجمعية الجغرافية الملكية البريطانية ولم يكن يتجاوز الثانية والثلاثين من العمر. وبعد أن ألف كتابين حول الرحلات والتنبؤ بالطقس تحول إلى دراسة الذكاء وقياسه.

وفي عام (1869) نشر "جالتون" أشهر كتبه في هذا المجال بعنوان "العبقرية الموروثة" Hereditary Genius، وفيه قدم الدليل والبرهان على الدور الذي تلعبه الوراثة في إنجازات الأشخاص الذين اشتهروا في مجالات كثيرة بمن فيهم البحارة والرياضيون والشعراء والمؤلفون ورجال الدولة. ويعد "جالتون" من أوائل الذين كرسوا دراساتهم وكتاباتهم للذكاء وقياسه. وكان يعتقد بأن الذكاء مرتبط بحواس الإنسان كقوة الإبصار والسمع والشم واللمس وزمن رد الفعل، ولذلك كانت محاولاته لقياس الذكاء تقوم على وضع اختبارات لقياس قوة الحواس. ونظراً لتأثره بنظرية قريبه "دارون" Darwin فقد توصل إلى أن القدرة الحسية للفرد (أو الذكاء) متوقفة على الاختيار الطبيعي (البيئة) والوراثة. وأضاف بأن أبناء الأسر الغنية تتهيأ لهم الفرص البيئية التي تمكنهم من تحقيق مستويات متميزة من القدرة. وقد عُرف "جالتون" بأنه أول من أجرى بحثاً على التوائم مقدماً بذلك نموذجاً طبقه الباحثون في دراسات التوائم في القرن العشرين وهو يقوم على أساس عزل المكونات الجينية أو الوراثية عن المكونات البيئية للذكاء *(Davis & Rimm, 2011)*.

وهكذا فإن "جالتون" هو أول من حاول دراسة الذكاء باستخدام المعدلات المتحققة تجريبياً لمستوى الإنجاز. وقد وجد أن جميع الرجال المتميزين لديهم بعض الخصائص العامة لخصها بالقدرة والحماس والاستعداد للعمل، وعد هذه الخصائص موروثة، و أشار إلى أن الأفراد يختلفون في الخصائص الموروثة من حيث الدرجة فقط، وأوضح أن هناك نوعين من القدرة هما: القدرة العامة والقدرة الخاصة التي هي بمثابة مواهب أو استعدادات أساسية لعمل ما. وكان يرى أنه من دون قدرة عامة لا يستطيع الفرد أن يكون رياضياً، ولكنه لن يصبح رياضياً عظيماً إذا لم تتوافر لديه قدرة خاصة مرتفعة *(Branch & Cash, 1966)*.

يقوم الافتراض الذي بنى عليه "جالتون" اختباراته لقياس الذكاء على اعتقاده بأن اختبارات التمييز الحسي وزمن رد الفعل هي بمثابة تقدير للأداء الوظيفي العقلي. وقلده في ذلك عالم النفس الأميركي "جيمس كاتل" James Cattell الذي كانت نظريته قائمة على أساس أن الفروق في حدة الحواس وسرعة الحركة – وما شابه – تعكس فروقاً في الأداء العقلي. وقد وضع اختبارات لقياس القوة العقلية كما تعكسهاسرعة الحركة والحساسية للألم وزمن رد الفعل وغيرها. وكان السبب وراء تفضيله لهذه المقاييس على المقاييس التي يمكن تسميتها (مقاييس الوظائف العقلية العليا) اقتناعه بأن هذه السمات يمكن قياسها بدقة أكبر *(Mehrens & Lehmann, 1978)*.

وتجدر الإشارة إلى أن "جالتون" – شأنه شأن الرياضي الفرنسي Quetelet – اعتبر أن القدرات العقلية مثل كثير من الصفات البدنية يمكن أن تتوزع طبقاً للمنحنى الطبيعي، بمعنى أن قدرات غالبية الأفراد تقع في حدود الوسط والباقي ينحني بالاتجاهين علواً وانخفاضاً.

"ألفرد بينيه" Alfred Binet (1857-1911)

إذا كانت اختبارات قوة الحواس التي وضعها "جالتون" ومن بعده "كاتل" تمثل أول محاولة لقياس الذكاء، فإنه يمكن اعتبار العالم الفرنسي "ألفرد بينيه" الأب الروحي لاختبارات الذكاء الحديثة. ففي عام (1904) كُلف "بينيه" من قبل وزير التعليم العام الفرنسي بوضع اختبار للتعرف على الأطفال بطيئي التعلم الذين لا يفيدون من بقائهم في الصفوف العادية بمدارسهم حتى يمكن عزلهم ووضعهم في صفوف خاصة لتقدم لهم برامج خاصة، حيث وجد أن عمليات تقييم المعلمين لقدرات الطلبة تتأثر بسمات مثل الطاعة والانقياد والنظافة والأناقة والمهارات

الاجتماعية وغيرها، وأن بعض الأطفال وضعوا في مدارس للمتخلفين بمجرد أنهم يتصفون بالهدوء الزائد أو العدوانية الشديدة، أو لأن لديهم مشكلات في الكلام أو الاستماع أو الرؤية، وكانت الحاجة حينذاك ماسة لاختبار ذكاء. وقد جرب "بينيه" عدة اختبارات غير ناجحة. ثم بدا له أن الطلبة العاديين والضعفاء لا يختلفون بصورة خاصة في قوة قبضة اليد، أو سرعة تحريك اليد لمسافة 50 سم، أو قوة الضغط المسببة للألم على مقدمة الرأس، أو زمن رد الفعل للأصوات، أو تسمية الألوان. وعندما بدأ بقياس القدرة على الانتباه والذاكرة والمحاكمة والاستيعاب أخذ يحصل على نتائج إيجابية، إذ ميَّزت الاختبارات بين الأفراد الذين قدر المعلمون أنهم يختلفون في ذكائهم.

وكان من أهم إسهامات "بينيه" توضيح مفهوم العمر العقلي الذي يعني نمو الذكاء، وأن أي طفل قد يكون في مستوى عقلي ملائم لعمره وقد يكون متقدماً أو متأخراً عن ذلك، وأن الأطفال الذين يتعلمون بسرعة في أي مستوى عمري يحققون ذلك لأسباب منها ارتفاع نسبة ذكائهم *(Davis & Rimm, 2011)*.

وفي عام (1905) توصل "بينيه" بمساعدة "سيمون" Simon (1873-1911) إلى وضع أول اختبار فردي متكامل للذكاء عُرف (بمقياس بينيه). وكان يشتمل على ثلاثين اختباراً فرعياً متدرجة بشكل منتظم وفق صعوبتها، ولا يتطلب النجاح فيها خبرة معينة نتيجة برامج تعليمية محددة. وقد حصل "بينيه" على معايير للاختبار من خلال عينة محدودة بلغ عدد أفرادها خمسين طفلاً تراوحت أعمارهم بين سن الثالثة وسن الحادية عشرة مفترضاً أنهم متوسطو القدرة العقلية بناء على تقديرات معلميهم، بالإضافة إلى عدد آخر من الأطفال المتخلفين عقلياً.

وقد نُشرت صورة الاختبار المعدل أول مرة في فرنسا عام (1908). وتميز التعديل بزيادة المدى العمري للاختبار حتى سن الثالثة عشرة، وإعادة ترتيب بنود الاختبار وإعادة تقنينه على عينة بلغت (203) أطفال. أما التعديل الذي أجراه "بينيه" بمفرده عام (1911) فقد شمل إعادة ترتيب الاختبارات وزيادة عددها لتصبح (54) اختباراً. ومع أن بنود الاختبارات اشتملت على كثير من المهمات المتنوعة، إلا أن "بينيه" و"سيمون" اعتبرا الذكاء سمة عامة وعرفاه بدايةً على أنه القدرة على التكيف بفاعلية مع المحيط.

ولم تمض فترة طويلة حتى ترجمت الاختبارات إلى الإنجليزية ونشرت في بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية عام (1916)، وظلت منذ ذلك الوقت بصورها المعدلة الأوسع

انتشاراً في أنحاء مختلفة من العالم. ومع الاختلاف الكبير بين الصور المستخدمة حالياً للاختبار وبين الصورة التي وضعها "بينيه"، إلا أن ذلك لا يقلل من أهميته التاريخية نظراً لأن جميع التعديلات اللاحقة حافظت على الخصائص والفروض الأساسية لاختبار "بينيه" باستثناء الطبعة الأخيرة التي صدرت عام (1986) واقتفت آثار اختبار و"كسلر" Wechsler في كثيرٍ من الخصائص.

"لويس تيرمان" Lewis Terman (1877-1956)

تشير الأدبيات المتوافرة في مجال القياس العقلي و رعاية الموهوبين إلى ارتباط اسم "تيرمان" ارتباطاً كبيراً بعلم نفس الموهبة وتعليم الموهوبين والمتفوقين بصورة لم يسبقه إليها أحد؛ فقد كان رائداً في الدراسات والبحوث التي استهدفت تحديد وسائل التعرف على الموهوبين والمتفوقين وتطوير أساليب التربية والتعليم الملائمة لهم. ولا غنى لأي باحث في هذا المجال عن الإفادة أو الاسترشاد بمنجزاته التي تحققت على مدى نصف قرن تقريباً. وتكفي مراجعة سريعة لما كتب ونشر في هذا الميدان لتظهر بوضوح أنه ومنذ العقد الثالث من القرن العشرين وحتى الآن لا يخلو كتاب أو بحث رصين من إشارة هنا أو هناك إلى هذا العالم الفذ ودوره في تطوير علم نفس الموهبة.

لقد كان الموهوبون والمتفوقون بالنسبة له شغله الشاغل طوال حياته، وبدأ اهتمامه بهم في فترة مبكرة من حياته، حيث كان موضوع أطروحته التي قدمها عام 1907 لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة "إنديانا" بالولايات المتحدة عبارة عن دراسة تجريبية للمقارنة بين مجموعتين صغيرتين تتكون إحداهما من سبعة أطفال نابهين والأخرى من سبعة أطفال بلداء. والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا الصدد هو: "كيف استطاع تحقيق هذه الشهرة الواسعة؟"

لقد حقق "تيرمان" شهرة عالمية واسعة لأسباب عديدة من أهمها:

أ- قياس القدرة العقليّة (الذكاء)

قام "تيرمان" ومساعدوه بتمويل من جامعة "ستانفورد" Stanford بولاية كاليفورنيا بدراسة موسعة لمقياس "بينيه" المعدل عام (1911) على عينة كبيرة من الأطفال. وأجروا تغييراً وتبديلاً لعدد من فقرات الاختبار في مستويات الأعمار المختلفة وحذفوا عدداً منها، كما أضافوا فقرات جديدة حتى أصبح المقياس مختلفاً بصورة جوهرية عن مقياس "بينيه"

الأصلي. وفي عام (1916) نُشرت الصورة المعدلة والمقننة على المجتمع الأميركي وعرفت باسم (مقياس ستانفورد–دينيه للذكاء).

وفي الجامعة نفسها بدأ "تيرمان" و"ميريل" Merrill في عام (1926) العمل في مشروع لتطوير المقياس وتعديله لتلافي العيوب وسد الثغرات التي أظهرتها عملية تطبيقه خلال عشر سنوات. واستهدف التعديل رفع سقف العمر العقلي في المقياس إلى (22) سنة، وتوسيع القاعدة الجغرافية التي اختيرت منها عينة التقنين، وزيادة عدد أفرادها إلى حوالي ثلاثة آلاف طفل، في حين كانت العينة الأولى مُكونة من ألف طفل يمثلون ولاية كاليفورنيا فقط. كما تمت زيادة عدد الأسئلة الأدائية في الأعمار الدنيا، وحددت التعليمات وطرائق التصحيح بدقة.

وفي عام (1937) انتهى الباحثان من إعداد صورتين متكافئتين للمقياس ونشر باسم "تيرمان"– "ميريل" Terman-Merrill أو ستانفوردَ بينيه تعديل (1937). واحتل هذا التعديل مكانةً متميزة في قياس الذكاء مدة تزيد عن عشرين عاماً، ثم ظهر تعديل آخر عام (1960) بعد وفاة "تيرمان". ونقلت الصورتان إلى دول كثيرة و استخرجت لها معايير محلية ولا تزال تستعمل بصورة واسعة في مجالات التشخيص المختلفة و الكشف عن الموهوبين، وفي البحوث والدراسات العلميّة. بالإضافة لذلك فقد شارك "تيرمان" في إعداد اختبارات التّصنيف والانتقاء لأفراد الجيش الأميركي خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها *(Borg & Gall, 1989)*.

ب - دراسات "تيرمان" للموهوبين والمتفوقين

بدأ "تيرمان" أعماله الضخمة في هذا الإطار بدراسة أجراها على مائة طفل تزيد نسب ذكائهم عن (140). وكان همه وطموحه أن يقوم بإجراء دراسة موسعة لاستقصاء السمات العقلية والبدنية والشخصية لعينة كبيرة من الأطفال الموهوبين والمتفوقين، يعقبها بدراسةٍ تتبعية تتيح له معرفة ما تؤول إليه أحوالهم في سن الرشد. وبفضل منحة سخية قدمها الصندوق الاتحادي لمدينة نيويورك أمكنه إنجاز هذه الدراسة الطموحة. وكان مشروع الدراسة يقوم على اختيار ألف طفل أو أكثر تكون نسب ذكائهم هي الأعلى من مجتمع يقدر بربع مليون من طلبة المدارس في ولاية كاليفورنيا. وكان اختيار الأطفال يتطلب استخدام عدة اختبارات نفسية وبدنية وتحصيلية بعد أن يتم ترشيحهم من قبل معلميهم. وقد استهدفت دراسة "تيرمان" الإجابة عن الأسئلة الآتية:

* ما سمات الموهوبين والمتفوقين عقلياً في طفولتهم؟

* ما الذي سيكونون عليه في كبرهم؟
* ما العوامل التي ستؤثر في إنجازاتهم اللاحقة؟

وكان العدد النهائي لأفراد العينة (1528) طفلاً منهم (831) من الذكور و (697) من الإناث. تراوحت أعمارهم ما بين (11-15) سنة، وكانت نسب ذكائهم (140) فأكثر ما عدا (65) طفلاً تراوحت نسب ذكائهم بين (135-139)، وأضيف هؤلاء إلى العينة إما لكبر سنهم أو لقرابتهم الحميمة لأفراد قبلوا في الدراسة.

في عام (1925) نُشرت نتائج المراحل المبكرة للدراسة تحت عنوان "السمات العقلية والبدنية لألف طفل موهوب" Mental and Physical Traits of Thousand Gifted Children في (648) صفحة. وفي عام (1927/ 1928) أجريت أول دراسة تتبعية ميدانية، حيث كان معدل أعمار أفراد الدراسة بين 16 و 17 سنة، وكان معظم أفراد عينة الدراسة في مستوى المرحلة الثانوية. وفي عام (1939/ 1940) تابع "لويس تيرمان" الحياة المهنية والشخصية لأكثر من (1300) من أفراد عينته عندما بلغ متوسط أعمارهم حينذاك حوالي الثلاثين واستمرت المتابعة بعد وفاته عام (1956).

وفي عام (1959) نشرت جامعة "ستانفورد" نتائج الدراسة التتبعية الثالثة بعد وفاة تيرمان في كتاب بعنوان "مجموعة الموهوبين في متنصف العمر: متابعة 35 سنة للطفل المتفوق" The Gifted Group at Mid-Life: Thirty-Five Years Follow-Up of the Superior Child. ومع أن تيرمان كتب الجزء الأعظم من الكتاب إلا أن "ميليتا أودن" Melita Oden استكملته بعد وفاته حيث كانت قد عملت مساعدة له لعدة سنوات.

وتنبع أهمية هذه الدراسات التتبعية التي قام بها تيرمان والعاملون معه من أربعة عوامل رئيسة، وهي:

1- تعد الدراسة الأولى من نوعها من حيث المنهجية، والشمولية، وحجم العينة، وطول فترة المتابعة.

2- ترتب على نتائج الدراسة ومتابعتها تسليط الضوء على مشكلات هذه الفئة من الطلبة وحاجاتهم للرعاية، كما أثارت اهتمامات الساسة والتربويين وأولياء أُمور الطلبة في الولايات المتحدة الأميركية - وربما خارجها - بموضوع تربية الطلبة الموهوبين والمتفوقين وتعليمهم.

3- قدمت نتائج الدراسة إجابات عن بعض التساؤلات التي قد تثار عند التخطيط لوضع برامج خاصة بالطلبة الموهوبين والمتفوقين. كما أن البيانات الهائلة التي تجمعت قدمت

عوناً كبيراً وأساسياً لا غنى عنه للمدافعين عن حقوقهم وللتربويين الراغبين في فهم الظاهرة ووضع الحلول المناسبة لها.

لقد بقيت نتائج دراسات "تيرمان" وبحوثه معيناً لا ينضب للباحثين والمربين داخل الولايات المتحدة وخارجها برغم كل الملاحظات والانتقادات التي تثار حول منهجيته في اختيار أفراد عينته ووسائله في القياس بشكل خاص. وقد علق في مقالة له عام 1954 على المفارقة الكبرى بين ما تجري ممارسته في المدارس الأميركية وبين ما تم التوصل إليه من خلال الدراسات والبحوث، وأكد أهمية اكتشاف القدرات الاستثنائية في مرحلة مبكرة. وأن مساعدة الفرد في الوصول إلى أقصى طاقاته الإبداعية أمر في غاية الأهمية حيث وجد أن أفضل الأعمال في معظم ميادين العلوم أنجزت من قبل مبدعين تقل أعمارهم عن الأربعين (*Gruber, Wallace & 1989*)، وأن آخر مرحلة زمنية لإنتاج أعمال أقل قيمة تمتد عادة إلى خمس سنوات أو عشر سنوات أخرى. وهذه حقيقة بالنسبة لحوالي عشرين مجالاً علمياً. والعبرة التي يجب استخلاصها هي أن الشباب الذين يتمتعون بقدرة عالية على الإنجاز يجب أن تتاح لهم فرص التدريب الجيد في مجال العمل الأساسي الذي يتناسب مع اهتماماتهم وقدراتهم قبل أن يضيع كثير من سنوات الإبداع لديهم. وهذا يثير مسألة التسريع الأكاديمي للموهوبين والمتفوقين مع أنه يبدو أن المدارس حالياً تعارض التسريع أكثر مما كانت عليه الحال قبل نصف قرن.

4- أسقطت دراسة "تيرمان" كثيراً من المفاهيم المغلوطة التي ارتبطت تاريخياً بالموهبة والإبداع والتي ربما لا يزال يؤمن بها كثيرون. لقد قدمت دراسات "تيرمان" ومعاصريه الدليل على عدم صحة عدد من المفاهيم الشائعة حتى وقت قريب، والتي سنستعرضها لاحقاً في هذا الفصل.

وهكذا نلاحظ أن اهتمامات "تيرمان" بالمشكلات التي تثيرها قضية الفروق الفردية أكسبته شهرة عالمية واسعة كما كانت من العوامل التي ساعدت في دفع حركة تربية وتعليم الموهوبين والمتفوقين وتعليمهم خطوة إلى الأمام.

ثانياً- الحرب الباردة و سباق التَسلُّح

شهدت الساحة الدولية بعد الحرب العالمية الثانية بروز قوتين عظمتين هما الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفييتي (سابقاً)، وراح كل منهما يستقطب أكبر عدد ممكن من الدول الحليفة والصديقة في مواجهة الطرف الآخر. وقد أوجدت الحرب وما أعقبها حالة من التوتر

الدائم نتيجة مشاعر الخوف والشك المتبادل بين الطرفين، وكان من أبرز نتائج هذه الحالة سباق محموم على تطوير جميع أنواع أسلحة الدمار التي تجاوزت حدود التصورات في الميادين التقليدية وغير التقليدية والفضاء الخارجي أيضاً. وعلى مدى العقود الأربع التي سبقت انهيار الاتحاد السوفييتي وحلف وارسو ظلت مخصصات التسليح توضع في مقدمة الأولويات الوطنية بالنسبة للدولتين الأعظم وغيرهما من الدول الحليفة.

كان التقليد المعتاد أن يقدم مهندسو الصناعات الحربية برامجهم وخططهم للإدارة السياسية لإقرارها ومن ثم السير في مراحل تنفيذها. ولكن ومنذ عام (1983) أدخل الرئيس الأميركي ريغان Regan تغييراً جوهرياً قلب هذه القاعدة رأساً على عقب، وذلك عندما طلب من العلماء والمهندسين إيجاد التقنية اللازمة لتغطية الولايات المتحدة الأميركية بكاملها بمظلة وقائية ضد أي هجوم نووي يشنه الاتحاد السوفييتي آنذاك. وبدأ تنفيذ ما سمي بمشروع حرب النجوم الذي خصصت له حينذاك ميزانية قدّرت بحوالي (26) مليار دولار على مدى خمس سنوات.

ومن الطبيعي والحال هذه أن يكون للموهوبين والمتفوقين أكاديمياً وتقنياً دور فاعل في جميع الميادين والمجالات. لأن الأمم في صراعها من أجل البقاء أوالسيطرة لا تجد بداً من الاعتماد على أبنائها الأكثر قدرة وكفاءة في تنفيذ المهمات الصعبة أياً كانت، ولا سيما عند اندلاع الحروب ونشوب الأزمات أو الشعور بالتهديد. وإذا كانت دول كثيرة – وخاصة في العالم الثالث – لا تحتكم لهذا المنطق في مواجهة التحديات، فإن هذا الاتجاه لا يغير من حقيقة الأمر شيئاً.

لقد أصيب المجتمع الأميركي بالذهول عندما أطلق الاتحاد السوفييتي – سابقاً – القمر الصناعي الأول المسمى "سبوتنيك" Sputnik عام (1957) في أوج سنين الحرب الباردة التي سادت بين البلدين عقب الحرب الكورية. وسيطر على العقول الأميركية شعور عام بهزيمة التقنية والتربية لديهم أمام العقول السوفييتية، وحمل الساسة والمجتمع مسؤولية هذا التخلف للتربويين وللمؤسسات التربوية. وارتفعت الصيحات على مختلف المستويات تدق طبول الخطر وتهاجم السياسات التربوية وتنقد واضعيها. وبعد امتصاص الصدمة انطلقت الجهود لخوض مرحلة جديدة من السباق، فعقدت المؤتمرات وهيئت المخصصات لمعالجة الخلل الذي تركز في مجالي برامج العلوم و الرياضيات وتربية الطلبة الموهوبين والمتفوقين وتعليمهم. ولعل أهم هذه المؤتمرات مؤتمر و"ودزهول" Woodshall الذي عقد في جامعة هارفارد ونجم عنه تطوير

مناهج الرياضيات والعلوم الحديثة. وخلال أقل من خمس سنوات كان اللحاق بل التفوق في مجال غزو الفضاء الخارجي عندما نجح الأمريكيون بإنزال أول إنسان على سطح القمر عام 1962.

و تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن كثيراً من الباحثين الأمريكين يعتقدون بأن إطلاق سبوتنيك حدث على درجة كبيرة من الأهمية في إثارة الاهتمام بالطلبة الموهوبين والمتفوقين في الولايات المتحدة وغيرها من الدول *(Davis & Rimm, 2011 ; Tannenbaum, 1983)*. غير أن الشرارة التي أطلقها هذا الحدث في الولايات المتحدة الأميركية قد خبت في أواسط الستينات، ثم عادت بقوة أكبر مع بدايات السبعينات وإن لم تصل بعد إلى المستوى الذي يطمح إليه المتحمسون والمدافعون عن برامج التربية الخاصة بالموهوبين والمتفوقين. وإذا كانت الولايات المتحدة الأميركية هي المسرح الفعلي الذي تفاعلت على أرضيته ذيول هذا الحدث، فإن العبرة التي تفرض نفسها هي ضرورة مبادرة الدول ولا سيما الدول العربية التي تواجه تحديات حقيقية إلى اتخاذ الخطوات اللازمة لتحقيق أفضل استثمار للعقول المتوافرة لديها والتي يفترض أنها تمثل ثروة لا تنضب للأمم الباحثة عن مكان لها في عصر القلق أو عصر المعلومات الذي نعيشه.

ثالثاً- الانفجار السكاني و الثورة التقنية و المعرفية

شهد العالم خلال العقود الثلاث الأخيرة أعظم انفجار معرفي في تاريخ البشرية، ويبدو أن المقارنة في أي ميدان من ميادين النشاط الإنساني بين ما تم إنجازه خلال هذه الفترة وبين ما سبقها تكشف عن مفارقات واختلافات هائلة تفوق حدود التصور. والأهم من ذلك أن هذا الانفجار يتواصل بخطى حثيثة وسريعة جداً ويتناول مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والتقنية. ولا شك أن هذا الوضع يولد مشكلات يتحتم من أجل التكيف معها إعادة النظر في دور المدرسة والكلية والجامعة. و لكن، من المؤسف أن هذه المؤسسات تبدو متخلفة في استيعاب ضرورات التغيير إذا ما قورنت بالمؤسسات الصناعية أو الإنتاجية الأخرى. فالمدرسة التقليدية والنظم الروتينية والأساليب التي تحكمها ما تزال على حالها تقريباً منذ عشرات السنين، لا فرق في ذلك بين بوسطن أو القاهرة أو بكين، على الرغم من التفاوت بين هذه و تلك نتيجة التباين في المحتوى الحضاري والثقافي والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية.

ومن جهة أُخرى فقد رافق التقدم المعرفي انفجار سكاني هائل يتزايد فيه عدد سكان العالم سنوياً بمقدار مائة مليون على وجه التقريب بمعدلات عقد التسعينات ومن الطبيعي أن تتزايد

تبعاً لذلك مشكلات الغذاء والتعليم والصحة والإسكان ...، وتتزايد مخاطر الصراع الناجم عن التداخل بين متغيرات تزايد عدد السكان والحراك الاجتماعي من الريف إلى المدينة والثورة العلمية والتقنية ومحدودية الموارد الطبيعية. ولا شك أن الصراع القائم بين محدودية الموارد والاحتياجات الضرورية يفرض على متخذي القرار اللجوء إلى عمليات مراجعة للأولويات. وإذا كانت مرحلة جماعية التعليم وتعميمه قد قطعت أشواطاً بعيدة وبلغت غايتها في عدد من الدول العربية، فإن مرحلة التركيز على الكيف والنوع يجب أن تأخذ مكانها كأولوية قصوى في أي محاولة لتطوير العملية التربوية وتحديثها حتى تلبي الاحتياجات المتغيرة للطلبة والمجتمع.

وبالقدر الذي تحل فيه مشكلات كثيرة مع تزايد المعرفة، فإن الانفجار السكاني و العولمة يوجدان مشكلات أكثر ليس على المستوى المحلي فقط بل على المستوى العالمي بشكل عام، لأن الثورة في مجال الاتصالات والمعلومات أزالت الحدود والحواجز ولم تترك خياراً لأي دولة في هذا العالم سوى أن تؤثر وتتأثر بالأحداث الجارية أينما كانت. ولأن المشكلات المعاصرة الناجمة عن عوامل التقدم المعرفي والتزايد السكاني ومحدودية الموارد على درجة كبيرة من التعقيد، فإن الحاجة والمنطق يستدعيان أن تعتمد كل أمة على أبنائها الموهوبين والمتفوقين في التصدي لهذه المهمة وإيجاد أفضل الحلول للوفاء باحتياجاتهم بعد أن بات مؤكداً عدم جدوى الحلول المؤقتة القائمة على الصقل والتلميع فقط. ولاشك أن هذا التوجه يعني الرعاية المبكرة لهذه الفئة في مؤسسات التعليم الحكومية وغير الحكومية.

رابعاً- الجمعيات والمؤتمرات العلميّة

أنشئت "الجمعية الوطنية للأطفال الموهوبين" National Association for Gifted Children في الولايات المتحدة الأميركية عام (1952)، وصدرت أول دورية متخصصة برعاية الموهوبين في الولايات المتحدة أيضاً وهي مجلة "الطفل الموهوب الربعية" Gifted Child Quarterly التي تصدر كل ثلاثة شهور منذ عام (1956)، وأنشئت جمعيات وطنية مشابهة في بريطانيا عام (1966) وفي فرنسا عام (1971). وعقد أول مؤتمر عالمي حول الأطفال الموهوبين والمتفوقين في مدينة لندن خلال النصف الأول من شهر أيلول عام (1975)، وشاركت فيه نخبة من العلماء والباحثين المهتمين بهذه الفئة من الأطفال بالإضافة إلى مندوبين يمثلون خمسين دولة من بينها ثلاث دول عربية هي الكويت والعراق وسوريا. واشتملت أعمال

المؤتمر على بحوث ومناقشات حول موضوعات متعددة، كما شرح مندوبو بعض الدول تجارب بلادهم في مجال رعاية الأطفال الموهوبين والمتفوقين *(Gibson & Chennells, 1976)*.

ويعد ذلك المؤتمر نقطة تحول مهمة في تطور الاهتمام بتربية الموهوبين والمتفوقين ولا سيما أن المؤتمرات والندوات المحلية والإقليمية والعالمية توالت منذ ذلك الوقت لبحث القضايا التي تخص هذه الفئة من الأطفال. ومن أبرز الاتحادات الدولية والإقليمية التي أنشئت لرعاية الموهوبين والمتفوقين (المجلس العالمي للأطفال الموهوبين والمتفوقين) و(الاتحاد الآسيوي) و(الاتحاد الأوروبي). كما توالى إنشاء الجمعيات المتخصصة في مختلف الولايات الأميركية، وكان لهذه الجمعيات والمؤسسات الوطنية والدولية والإقليمية المهنية المتخصصة دور فاعل في رفع درجة الوعي المجتمعي العام بحاجات الموهوبين والمتفوقين وفي دعم البحوث وإصدار الدوريات والنشرات وعقد الدورات التدريبية وبرامج الدراسات العليا لتأهيل وإعداد المعلمين والمشرفين للعمل في برامج تعليم الموهوبين والمتفوقين في أنحاء مختلفة من العالم.

وتجدر الإشارة هنا إلى الإسهامات الإيجابية التي تقدمها مؤسسات عربية وطنية وإقليمية في مجال تربية الموهوبين والمتفوقين وتعليمهم عن طريق إجراء البحوث والدراسات ونشر المطبوعات وعقد المؤتمرات والندوات العلمية المتخصصة. ومن أبرز هذه المؤسسات نذكر ما يأتي:

- مكتب التربية العربي لدول الخليج/ الرياض.
- المجلس العربي للطفولة والتنمية/ القاهرة.
- الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية/ الكويت.
- المجلس العربي للموهوبين والمتفوقين/ عمان.
- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم/ تونس.
- مؤسسة عبد الحميد شومان/ عمان.
- برنامج الخليج العربي لدعم منظمات الأمم المتحدة الإنمائية/ الرياض.
- منتدى الفكر العربي/ عمان.
- المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم/ الرباط.
- مؤسسة الملك الحسين/ عمان.

- مؤسسة الملك عبد العزيز و رجاله لرعاية الموهوبين.
- الجمعية البحرينية لتنمية الطفولة.
- مؤسسة الكويت للتقدم العلمي.
- مركز صباح الاحمد للموهبة والإبداع
- صندوق الملك عبد الله الثاني للتميز/ عمان
- مؤسسة قطر للتربية والتعليم وتنمية المجتمع
- جائزة حمدان بن راشد للتميز
- الصندوق الاجتماعي للتنمية / اليمن.

خامساً- المجهودات الفردية

نذر عدد من الباحثين والمربين أنفسهم للدفاع عن قضية التربية الخاصة للموهوبين والمتفوقين بكل الوسائل الممكنة. وكان لهم أثر كبير في تسليط الأضواء على الأضرار الجمة التي تعود على المجتمع أولاً وعلى الأفراد أنفسهم ثانياً نتيجة تجاهل المؤسسات التربوية أو إهمالها لحاجاتهم الخاصة. وربما كان من غير الممكن حصر جميع الإسهامات التي قدمها هؤلاء المربون لهذه القضية في مختلف أنحاء العالم، وسنكتفي بإيراد بعض الأمثلة.

لعل أهم دراسة تتبعية طولية شهدها القرن العشرين حول الطفل الموهوب والمتفوق تعود لأستاذ علم النفس الأميركي الذي سبق ذكره "لويس تيرمان". وقد أثمرت دراسته – ومن بعده معاونوه – في جامعة ستانفورد بكاليفورنيا خمسة مجلدات، أولها صدر عام 1925 وآخرها صدر بعد وفاته عام (1959). وحملت مجلداته عنوان "الدراسات الجينية للعبقرية" Genetic Studies of Genius.

وإذا كان "جالتون" Galton هو بمثابة الجد لحركة تعليم الطفل الموهوب والمتفوق، و"بينيه" Binet هو القابلة، و"تيرمان" Terman هو الأب، فإن "ليتا هولينغويرث" Hollingworth هي الأم والمربية، لأنها عملت من دون كلل حتى مماتها لكسب التأييد والدعم لرسالتها حول الأطفال الموهوبين والمتفوقين على المستويين الرسمي والشعبي في ولاية نيويورك Davis & (Rimm, 1989). ومن ملاحظاتها القيمة أن الطالب الذي نسبة ذكائه (140) يخسر نصف وقته في قاعات الصفوف العادية، بينما يخسر كل وقته تقريباً كل من بلغت نسبة ذكائه (180)

فأكثر (Hollingworth, 1942). وقد نشر لها كتابان عامي (1926) و (1942) حول طبيعة الأطفال الموهوبين والمتفوقين وكيفية رعايتهم، وحول الأطفال الذين تفوق نسبة ذكائهم (180) على مقياس ستانفورد بينيه. وقد استعرضت في كتابها الثاني الصعوبات التي تواجه الأطفال من ذوي القدرة العقلية المرتفعة.

ومن الرواد الذين ينبغي عدم إغفالهم "جوليان ستانلي" Julian Stanley من جامعة "جونز هوبكنز" الذي يعود إليه الفضل في إنشاء البرامج المسماة "البحث عن الموهبة" Talent Search في جميع أنحاء الولايات المتحدة. وهو الذي قدم مفهوم استخدام الاختبارات المصممة لأعمار ودرجات أعلى للكشف عن أطفال متفوقين من أعمار أدنى ولا سيما في مجال الرياضيات، كأن يستخدم اختبار الاستعداد الأكاديمي المدرسي الأميركي (SAT) المصمم لطلبة نهاية المرحلة الثانوية في الكشف عن طلبة متفوقين في مستوى الصفوف السابع والثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر، ويطلق على الاختبار في هذه الحالات "اختبار خارج حدود المستوى" .Off-Level Testing ويعد "ستانلي" من أكثر المدافعين عن برامج التسريع الأكاديمي للأطفال المتفوقين الذين يظهرون أداءً رفيعاً على اختبارات الاستعداد الأكاديمي.

أما في العالم العربي فقد برز عدد من الباحثين والأكاديمين والمهتمين الذين يعتبرون رواداً لعبوا أدواراً مميزة في مجالات الكشف عن الموهوبين والمتفوقين ورعايتهم . ومن بين هؤلاء الرواد نذكر الدكتور عبدالله النافع الذي قاد فريق المشروع الوطني للكشف عن الموهوبين ورعايتهم في المملكة العربية السعودية خلال العقد الماضي والذي أسفر عن تطوير مقاييس مقننة للذكاء والقدرات العقلية والتفكير الابتكاري ضمن معايير متعددة للكشف عن الموهوبين وكذلك إعداد برامج إثرائية كنماذج لرعاية الموهوبين. وقد أسس الدكتور النافع بناء على نتائج هذا البحث البرنامج الوطني للكشف عن الموهوبين ورعايتهم وتولى رئاسته، ثمّ نجحت جهوده في إنشاء مؤسسة الملك عبدالعزيز ورجاله لرعاية الموهوبين كمؤسسة وطنية خيرية تعبّر عن دعم المجتمع واستثماره في برامج رعاية الموهوبين ووضع اللبنات الأولى لإنشائها، وتولى رئاستها خادم الحرمين الشريفين ولا يزال.

أما في السودان استحقت الأستاذة مريم عمر بكل جدارة لقب الأم والقابلة لحركة رعاية الموهوبين في السودان، وقد كانت مديرة للتعليم الأساسي في وزارة التربية بالخرطوم قبل حوالي عشر سنوات تقريباً عندما بدأت جهودها الحثيثة لإطلاق مشروع إنشاء مدارس للطلبة الموهوبين والمتفوقين، وبعد حصولها على الموافقة من قبل الجهات المسؤولة في الوزارة وولاية

الخـرطوم، بدأت بالتـعـاون مع إدارة المجلس العـربي للمـوهـوبين والمتـفـوقين، بوضـع الخطة التنفيـذية للمشـروع ، وتنفيـذ البرامج التدريبية لإعداد نخبة من المعلمين والمعلمات الذين تمّ اخـتـيـارهم بعناية للعمل في مـدارس الموهوبين، وتكللت جـهـودها بافـتـتـاح ثلاث مـدارس في العاصمة المثلثة (الخرطوم، بحري، وأم درمان)، وكانت رائدة باعتبارها أول تجربة عربية تقدم برامجها للطلبة في مستوى الصف الرابع الإبتدائي في مدارس مستقلة بواقع فصلين في كل منها أحدهما للذكور والثاني للإناث.

واستمرت عملية تطوير مختلف جوانب البرنامج بإشراف خبراء المجلس العربي في رعاية الموهوبين، وأساتذة من جامعة الخرطوم، واختبارات القبول والمناهج الإثرا ئية والبرامج الإرشادية، ولم تتوقف عند هذا الحد بل تجاوزته لتنجح في الإعلان عن تأسيس الهيئة القومية لرعاية الأطفال الموهوبين في السودان عام 2006، بمباركة رئيس الدولة.

وفي الكويت لعب الدكتور رجاء أبو علام والدكتور بدر العمر من جامعة الكويت دورًا بارزًا على مدى سنوات في وضع نظام للكشف عن الأطفال الموهوبين ورعايتهم. ...ليبيا ..). أما في دولة الإمارات العربية المتحدة فلا بد من الإشارة إلى السيد ضاحي الخلفان الذي أنشأ جمعية الإمارات لرعاية الموهوبين والذي يمثل نموذجاً للمهتمين بالعقول العربية من خارج الميدان التربوي . وفي المملكة الأردنية الهاشمية وعلى مستوى الوطن العربي كان للمؤلف دور ريادي في افتتاح مدرسة اليوبيل للمتفوقين عام (1993)، وإنشاء المجلس العربي للموهوبين والمتفوقين عام (1996)، وقبل ذلك إدارته للمركز الريادي للمتفوقين في مدينة السلط منذ عام 1986لمدة سنتين.

وفي هذا السياق لا يمكن تجاهل الدور الذي تقوم به مؤسسة قطر للتربية والعلوم وتنمية المجتمع التي تبنت الأطفال والطلبة الموهوبين من العراق والسودان ولبنان وغيرها، وقدمت لهم كل التسهيلات اللازمة لإكمال دراستهم وصقل مواهبهم، وذلك بالإضافة إلى مساهمة قطر في تأسيس المجلس العربي للموهوبين والمتفوقين عام 1996، حيث كانت من بين الدول الثمانية الممثلة في قائمة مؤسسي المجلس.

نخبة من الرواد المؤسسين للمجلس العربي للموهوبين والمتفوقين (1996)

بقي أن نشير في هذا السياق إلى أن طبيعة المشكلات التي تواجهنا للتكيف مع تقنيات عصر الحواسيب والذكاء الاصطناعي والمعلومات والاتصالات الإلكترونية الحديثة، تفرض علينا – لامحالة – اللجوء إلى أفضل العقول القادرة وإتاحة الفرص الملائمة لها وإعدادها لمعالجة مثل هذه المشكلات. وهذا بطبيعته مرتبط بعملية تطوير جذرية لإعادة ترتيب أولوياتنا في مجال التربية والتعليم بحيث تضمن تلبية احتياجات الموهوبين والمتفوقين من الأطفال والشباب.

❖ مفاهيم تقليدية حول الموهبة والإبداع

هناك عدد من المفاهيم التقليدية المغلوطة حول الموهبة والإبداع تشكلت عبر العصور وربما لا يزال بعضهم مؤمناً بها حتى يومنا هذا. وسنحاول تسليط الضوء على بعض هذه المفاهيم المغلوطة التي لا تستند إلى أساس علمي، ومنها:

أولاً- الاضطراب العقلي والانفعالي

يذكر الباحث "كولمان" *(Coleman, 1964)* في كتابه "علم نفس الشواذ" أن كثيرين من مشاهير الإغريق والرومان، ومنهم: سقراط Socrates وديمقريطس Democritus والإسكندر الأكبر

Alexander عانوا من اضطرابات عقلية بصورة أو أخرى، وفي العصور الوسطى هناك أمثلة كثيرة على السلوك الشاذ يأتي في مقدمتها سلوك الفاتح "تيمورلنك" Tamerlane (1336-1405) الذي كان مغرماً ببناء الأهرام من الجماجم البشرية حتى أن واحداً من إنجازاته المعمارية ضم حوالي أربعين ألف جمجمة. وفي العصور المتأخرة يذكر أن جان جاك روسو Roussseau (1712-1778) الفيلسوف الفرنسي ظهرت عليه في سنين حياته الأخيرة أعراض الذهان الهذائي (بارانويا) أو الاضطراب العقلي الذي يشمل جنون الارتياب والاضطهاد والعظمة. وكانت تنتابه مخاوف من أعداء مجهولين، وكان يعتقد بأن روسيا وإنجلترا وفرنسا والملك والكهنة وغيرهم يشنون حرباً مرعبة ضده، وأن هؤلاء الأعداء هم الذين يقفون وراء جميع أنواع قلقه النفسي. وقد تخلى هو وزوجته عن أطفالهم الخمسة وتركاهم في ملجأ للأطفال المشردين في باريس . ومن نوبات هوسه أنه أثناء زيارة للندن رحَل فجأة عائداً إلى فرنسا تاركاً وراءه أمتعته الشخصية ونقوده، ووصل به الحال أن يطلب وضعه في السجن، ولم يكن قادراً على الثقة بأحد حتى كلبه الخاص.

إن هذا النموذج للسلوك الذي يوصف بالشذوذ يندرج ضمن قائمة طويلة من النماذج المماثلة لسلوكات شاذة ظهرت لدى عدد من الفلاسفة والرسامين والموسيقيين والكتاب والقادة العظام. وربما كان هذا النموذج وغيره من النماذج وراء الاعتقاد الراسخ الذي تكون لدى عامة الناس وبعض الباحثين في أن الموهوب أو المبدع إن لم يكن مريضاً عقلياً فهو شاذ أو عرضة للمرض العقلي واضطراب السلوك. وهناك من يرى بأن الموهبة تقترن بالعبقرية وأن العبقرية ترتبط تقليدياً بالعصاب وحتى بالاضطراب العقلي *(Vernon, Adamson , &Vernon, 1977)* أو أن العبقرية والمرض العقلي صفتان متلازمتان. وقد عزز هذا المفهوم ما قام به بعض الباحثين من تجميع وتصنيف قوائم بشخصيات تاريخية بارزة ممن عانوا من اضطرابات عقلية في محاولة لإثبات وجود علاقة إيجابية بين العبقرية واضطراب العقل. وذكر آخرون أن أغلب العباقرة يعانون من اضطرابات نفسية وعقلية كالتشنج والصرع واختلال الأعصاب والجنون، وأضافوا أن العبقرية كثيراً ما تنشأ من المرض. وهناك من أورد أمثلة حول نزعات الانتحار عند المبدعين.

هذه الأفكار ليست جديدة على الحضارة الغربية أو الحضارة العربية، فهناك من يرى بأن أصولها عند الغربيين تعود إلى الحضارة اليونانية وربما قبلها *(Albert, 1976)*. فقد كان أرسطو Aristotle (384-322 ق.م.) يعتقد أن العبقرية الباهرة لا توجد دون الجنون، وأن هذا

الجنون يترافق مع مس من الشيطان يتلبس الشخص. وفي أواخر عصر النهضة كان الفنان مايكل أنجلو يوصف بأنه من طبيعة فوق طبيعة البشر. أما العرب في جاهليتهم فقد كانوا يعتقدون بوجود واد تسكنه الشياطين والجن سموه "عبقر" ونسبوا إليه كل من أتى بعمل خارق للعادة ووصفوه بالعبقري. وهكذا نجد أن هذا المفهوم الذي ما يزال قائماً برغم كل التقدم العلمي والبحوث التجريبية في مجال العلوم الإنسانية يستند إلى معتقدات قديمة ربطت بين العبقرية أو السلوك الإبداعي وبين الجنون ومس الشيطان.

ويشير واقع الحال إلى أن الدراسات التجريبية التي تمت منذ بداية العشرينات في القرن العشرين لم تكشف عن وجود علاقة بين الموهبة والأمراض العقلية أو الاضطرابات السلوكية، والأمثلة على ذلك كثيرة. فالدراسة التتبعية الشاملة التي أجراها "تيرمان" أظهرت أن معدلات الوفاة والطلاق والمرض العقلي كانت لدى عينة الموهوبين بدرجة أقل من المعدلات المعروفة في المجتمع الأميركي ككل *(Terman & Oden,1959)*. كما أجرى "جودا" *(Juda,1949)* دراسة امتدت سبعة عشر عاماً على عينة تألفت من (294) شخصية نابغة في الفنون والعلوم، وتوصل إلى عدم وجود دليل يدعم الافتراض بوجود علاقة بين القدرات العقلية المرتفعة والسلوك الشاذ أو الاضطراب العقلي. كذلك أخفق "ماكينون" *(MacKinnon,1962)* في إيجاد علاقة ذات دلالة بين الإبداع والمرض النفسي عندما أجرى دراسته على عينة من المعماريين والكتاب وغيرهم من المهنيين والمحترفين الذين كانوا من المبدعين. إن مثل هذه النتائج تسفه النظرية القديمة المتجددة القائمة على الربط بين الموهبة والاضطراب العقلي والسلوك الشاذ.

إذا كان لا بد من تفسير لهذا الاعتقاد الخاطئ، فإنه يمكن القول بأن التراث الحضاري البشري على وجه العموم يحفل بنماذج كثيرة من ردود الفعل المحبطة بل القاسية أحياناً تجاه الموهوبين والمتفوقين في مختلف الحضارات. وربما كان مرد ذلك أنهم أشخاص متقدمون على أبناء جيلهم وسابقون لعصرهم، أو لمجرد أنهم مختلفون عن غيرهم بصورة كبيرة تولد ميلاً اجتماعياً عاماً لمقاومة هذا الاختلاف كما يقاوم التجديد والتغيير في كل الأزمنة والأمكنة. ومن التاريخ القديم يمكن الاستشهاد على هذا الاتجاه بما حدث للفيلسوف اليوناني سقراط Socrates (399-470 ق.م.) حيث اتهم بتشجيع الشباب على نقد الأفكار والمعتقدات السائدة حينذاك، واعتقل وحوكم وأدين ومات بعد أن أجبر على تناول السم.